سوسير سيرة ومسيرة.

الأستاذ: سعادة لعلى
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

دي سوسير، المولد والمسيرة العلمية:

ولد فرديناند دي سوسير في جنيف (سويسرا) يوم 26 نوفمير 1857 والتحق بجامعتها عام (1875م)، ليتخصص في دراسة الفيزياء واختلف بين الحين والآخر إلى حلقات البحث في النحو الإغريقي واللاتيني، وقد شجعته هذه البحوث على قطع دراسته ومغادرته إلى جامعة ليبرغ ليتخصص في اللغات الهندو أوروبية.

بعد إحدى عشرة سنة (عام 1887م)، أصدر أول كتاب له في اللغات وهو كتاب (النظام الصوتي في اللغات الهندو أوروبية القديمة). وبعد أربع سنوات أصبح عضوًا في الجمعية الألسنية الفرنسية، وعند عودته إلى جنيف شغل كرسي أستاذ اللغات لسنوات طويلة، قدم فيها سلسة من المحاضرات نُشرت بعد وفاته، وقد طبع تلاميذه الكتاب بعناية سنة 1916م، أي بعد وفاته بثلاث سنوات، وقد تُرجم إلى العربية بعنوان (محاضرات في الألسنية). [1]

بدأ سوسير كتابه المذكور بتعريف اللغة ذاتها مميزًا بين ثلاث مستويات من النشاط اللغوي (اللغة، واللسان، والكلام)، فاللغة عنده "نظام من الرموز المختلفة التي تُشير إلى أفكار مختلفة، وهي مجموعة المصطلحات التي تتخذها هيئة المجتمع بأكمله؛ لإتاحة الفرصة أمام الأفراد لممارسة ملكاتهم."[2] أما اللسان فيعني عنده نظام اللغة التي

1. ينظر إبراهيم خليل، انقلاب ثوري في الألسنيات، مجلة أفكار، العدد 118، آب 1994م، ص140.

2. محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، ليبيا، ط1، 2004، ص20 .

من خلاله تنتج عملية المحادثة [1]. أما الكلام فيُعرف بأنه "التحقق الفردي لهذا النسق في الحالات الفعلية من اللغة.[2]"

إذن فاللغة هي العنصر الاجتماعي للكلام، والكلام هو المظهر الفردي للغة . واللغة رموز تعبر عن أفكار، ولا علاقة للغة بأخطاء الكلام فهي الهياكل التي تخضع لها عمليات التنفيذ الكلامية.

وهذا أول تعريف للغة نعثر عليه في الدراسات اللسانية، ويمكن تبسيط هذا التعريف بالقول بأن اللغة عنده هي الحاضر الأوسع فالظروف النفسية والجسدية ونظام النطق ونظام الإشارة وتاريخ اللغة هو ما يشكل عنده اللغة بذاتها.

سوسير والتألق العلمي:

يعدُّ دي سوسير عالم لغويات، والأب المؤسس لمدرسة البنيوية في اللسانيات فهو من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، حيث اتجه تفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة[3] ظاهرة اجتماعية، حيث كانت اللغات تدرس دراسة تاريخية.

كان فرديناند دي سوسير مساهمًا كبيرًا في تطوير العديد من نواحي اللسانيات في القرن العشرين، فكأن أول من أعتبر اللسانيات فرعا من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية حيث اقترح تسميته بالسيميوتيك أو علم الإشارات.

كان لــ(دي سوسير) فضل السبق في أربعة مسائل هامة:

أولاً: مبدأ ثنائية العلاقات اللفظية أي (التفرقة بين الدال والمدلول).

ثانيًا: مبدأ أولوية النسق أو النظام على العناصر.

ثالثًا: مبدأ التفريق بين اللغة والكلام.

رابعًا: مبدأ التفرقة بين التزامــن والتعاقب[4].

1. ينظر روبرت شولز، البنيوية، اتحاد الكتاب العام، بيروت، ط6، 1977م، ص26.
2. رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة، جــابر عصــفور، سلســلة آفــاق الترجمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، 1996م، ص 109 .
3. ينظر محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، مرجع مذكور، ص 26 ــ 28.
4. مزهر حسن الكعبي، البنيوية والتحليل البنيوي في النص الأدبي، جريدة الجريدة، ينظر الـــــــــــــــــــــرابط الآتـــــــــــــــــــــــــي:

المبدأ الأول يتحدث عن الكلمة، فالكلمة عنده هي إشارة وليست اسمًا لمسمى بل هي كل مركب يربط الصورة السمعية والمفهوم، وهو يقصد بذلك الدال وهو الصورة السمعية. أما المدلول فهو المفهوم.[1]

إن اللغة عند سوسير نظام من الإشارات التي تُعبر عن اللغة، والعلاقة بين تلك الإشارات ومدلولاتها علاقة اعتباطية، بدليل اختلاف الإشارة وهذا ما قاده إلى تأسيس علم السيمولوجيا.[2]

أما المبدأ الثاني الذي اكتشفه سوسير، (أولوية النسق)، وهو ما يتولد عن اندراج الجزئيات في سياق. أو هو بنيويًا ما يتولّد عن حركة العلاقة بين العناصر المكوّنة للبنية، باعتبار أن لهذه الحركة انتظامًا معينًا يمكن ملاحظته وكشفه، أو النظام على العناصر، فيُشير إلى أن اللغة نظام، ويُريد بنية هذا النظام وذلك لكونه مؤلَّفا من وحدات لها تأثير متبادل على بعضها.[3] وبذا فإن سوسير يدعو إلى تحليل البنية (النظام) وكشف عناصرها (الرموز والصور والموسيقى) في نسيج العلاقات اللغوية (أي في أنساقه) لمعرفة ملابسات بنيتها من الداخل والخارج؛ أي البحث عن مجموعة العناصر وعلاقاتها المتشابكة داخل هذا النظام.

المبدأ الثالث وهو التفرقة بين اللغة والكلام؛ ذلك أن اللغة مجموعة القواعد والوسائل التي تخضع لها الممارسة اللغوية. أما الكلام فهو الطريقة التي تتجسد من خلالها تلك القواعد والوسائل في موقف بعينه، ولوظيفة بعينها.[4]

---

ttp://www.aljaredah.com/paper.php?source=akbar&mlf=interpage&si
d=11279 تاريخ فتح الرابط: 2014/10/16. الساعة: 14:13.

1. ينظر روبرت شولز، البنيوية، مرجع مذكور، ص27.
2. نفسه، ص27.
3. نفسه، ص30.
4. ينظر يوري لوتمان، تحليل النص الشعري، ترجمة، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، القاهرة، ص7.

ولكن كان اهتمام دي سوسير في معالجتهِ لمكونات العملية الإبداعية الكلامية باللغة دون الكلام؛ لأن الكلام، في رأيه، فعل فردي لا يمثل سوى بداية اللسان أو الجزء الفيزيائي، وهو مستوى خارج الواقعة الاجتماعية.

جاء بعد سوسير هيلمسليف ونعوم تشومسكي ورومان جاكبسون و رولان بارت ، تحول عندهم ما كان هامشيًا عند دي سوسير إلى موضوع رئيس. إذ الكلام أضحى نصًّا أو إنجازًا أو رسالةً أو خطابًا في الدراسات الأسلوبية.[1]

أما المبدأ الرابع وهو التفرقة بين التعاقب والتزامن، إذ يرى سوسير أنه من الممكن أن تكون دراسة نسق اللغة إما تزامنية أو تعاقبية، ويعرِّف سوسير هذين المصطلحين بقولهِ: "يمكن أن نصف كل شيء يرتبط بالجانب السكوني من عملنا بأنه تزامني، في حين يمكن أن نصف كل شيء له علاقة بالتطور بأنه تـــعاقبي"[2]. فالتزامنية تختص بوصف حالة اللغة، في حين تختص التعاقبية بوصف المرحلة التطورية للغة.

ولعل من أبرز إسهامات سوسير أنه بيّن ثلاثة مستويات للغة:

أولاً اللغة نظام.

ثانيًا اللغة صياغة.

ثالثًا اللغة منطق[3] .

المستوى الأول: اللغة نظام (حسب سوسير) تُدرس بوصفها نظامًا كونيًا، شأنها شأن أي نظام كوني آخر، ومعنى هذا أن النظام يختص بوصف اللغة ظاهرة اجتماعية.

المستوى الثاني: اللغة صياغة؛ أي هي التي تميز قدرة الفرد على استغلال كل طاقات اللغة في إطار نظامها، بمعنى أن اللغة صياغة تكشفُ لنا عن طاقتين: طاقة فردية، وطاقة لغوية عامة.

---

1. رابح بوحوش، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغـوية على ضـوء اللســـانيات وعلم النص، مجلة معهد اللغة وآدابها، جامعة الجزائر، العدد 12، 1997م، ص 160.
2. ينظر س. رافيندان، البنيوية والتفكيك تطورات النقد الأدبي، ترجمةن خالدة أحمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2002م، ص42.
3. صلاح فضل بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفـة، المجلـس الـوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس، 1992، ص22 .

المستوى الثالث: اللغة منطق، فتمثل مستوى من مستويات اللغة، فهي تخرج تلقائيًا بوصفها عملية توصيل مباشر للفكر.

والملفت والهام في هذه المستويات هو أنه اعتبر اللغة نظامًا، ثم قسم النظام إلى قسمين: نظام **زمني** ونظام **وصفي**.

1.**النظام الزمني**: شبه سوسير اللغة بلعبة الشطرنج؛ إذ إن انتقال هذه اللعبة من الهند إلى أوروبا أو غيرها لا علاقة له بنظام اللعبة ووضع الأحجار في زمن معين بين اللاعبين وهذا تحدده اللعبة السابقة واللعبة اللاحقة، فوضع الأحجار متغير غير ثابت، وكذلك وضع اللغة، فاللغة في الفترة الزمنية السابقة تختلف عن الزمنية اللاحقة لأنها تأخذ وضعًا جديدًا[1] وبذا فإن الكلمة، بناءً على ذلك، هي جزء في سياق زمني خاضعة له، لها علاقة بما سبقها وبما سيسبقها من كلماتٍ .

2.**النظام الوصفي**: تطرق فيه إلى العلاقة السياقية في الكلمة. يقول سوسير: "بمعنى أنني أدرس وظيفة الكلمة في حالها الذي تقدّم فيه اللحظة الراهنة، وليس في إطارها التاريخي، أي أنها تُدرَس في علاقاتها المنطقية بينها وبين الكلمات الأخرى المستخدمة في سياق التعبير". والمجال الوصفي للغة هو الذي يُفيد في دراسة لغة الأدب؛ لأن النص الأدبي نظام من الكلمات العاملة مع بعضها لإعطاء الدلالة. ويمكن أن يكون هذا العمل من خلال التضاد أو الترادف أو الانسجام الصوتي، ويمكن أن تكون تلك الدراسة طريقًا لدراسة قيمة العمل الأدبي من خلال نفسه لا من خلال السياق التاريخي له.

وربما كانت هذه الإضافة لسوسير التي مهدت لما سُمي فيما بعد بـــ "موت المؤلف".

أما المستوى الثاني من مستويات اللغة عند سوسير وهو اللغة صياغة أي إشارة، والذي أفاد منه دارسو الأدب كل الإفادة في تحليل العمل الأدبي، وذلك في تطوير علم الدلالة اللغوي المكون من المستوى الصوتي والدلالي اللذين يشكلان الدلالة النهائية للتركيب؛ لأن قواعد اللغة غير كافية لفهم التركيب.

ومن إسهامات سوسير أيضًا في مجال علم اللغة أنه فرّق بين اللغة (باعتبارها منظومة من الأصوات الدالة متعارف عليها في مجتمع معين وإن لم تكن واقعا منطوقا لدى أي فرد من أفراده)، وبين الأقوال (وهي كل الحالات المتحققة من استعمالات اللغة

1. صلاح فضل بلاغة الخطاب وعلم النص، مرجع مذكور، ص 32 وما بعدها.

ولا يكون واحدا منها، بل ولا يلزم أن تكون جميعُها ممثِّلةً للغة في كمالها ونقائها المثاليين) .

وهكذا انتقلت تلك الفكرة من علم اللغة إلى علم الأدب فأخذوا يفرِّقون بين الأدب (باعتباره نظامًا رمزيًا تحته نظم فرعية يمكن أن تُسمى الأنواع الأدبية، وبين الأعمال الأدبية (باعتبارها نصـــوص متحققة يمكن أن تمثل هذه النـــظم بكيفية ما أو بدرجة ما) .

سوسير والتحليل اللغوي:

لسوسير طريقتان متكاملتان في التحليل اللغوي، وهما في إطار العلاقات العمـــودية والأفقية للغة .

فالعلاقة الأفقية هي وجود الكلمة داخل سياق معين، وغايتها معرفة ارتباط بعض الكلمات ببعض.

أما العمودية أو الرأسية فهي إيجاد الكلمة أي ما تستثيره الكلمة من معنى خارج السياق من خلال علاقة هذه الكلمة بكلمات أخرى في الذاكرة، وغايتها معرفة علاقة الكلمة المذكورة في النص بالكلمات التي من واديها.

سوسير والتنظير للبنوية:

يعدّ سوسير ــ الأب الروحي للبنيوية ــ إذ لم يكن منكرًا لقيمة الدراسة التاريخية، ولكنه رأى أن الدراسة التاريخية للظواهر اللغوية يجب أن تأتي تابعة لدراسة اللغة باعتبارها نظاما مستقلا بفترة زمنية معينة وجماعة بشرية معينة، فمعرفة النظام يجب منطقيًا أن تسبقَ معرفة التغيرات التي تطرأ عليه.

ويرى سوسير أن كثيرا من مناهج الأدب كانت تدرُس الظاهرة الأدبية من الخارج. ومردّ ذلك إلى الشروط التاريخية أو العوامل الباطنية للمؤلف، ومعنى هذا أن الأدب كان أرضًا لا مالك أرض، لذلك كان عرضُه للعديد من المناهج والاختصاصات بعيدة كل البعد عن طبيعة الموضوع المدروس.

ويرى أنه يجب أن يستقل الأدب بموضوعهِ وبمنهجهِ. وجاء المنـــهج البنوي ليدرس الأدب وكان صاحب الفضل في ذلك العالم دي سوسير الذي أسهم بكتابهِ "دروس في علم اللغة العام" في تطور النظرية البِنوية فيما بعد.

توفي دي سوسير في 22 فبراير 1913.